

الفصل الأول

مفهوم تعليم الكبار وتطوره (*)

مفهوم تعليم الكبار :

مع ان الممارسة العملية لتعليم الكبار قديمة فان الاستخدام العلمى لهذا المصطلح قد شاع بعد الحرب العالمية الأولى عندما بدأ الاهتمام بتعريف هذا الميدان وتحديد مجالاته وانشطته . كما بدأ يجتذب الباحثين اليه ليسيروا اغواره ويتعمقوا في فهمه . ولعل من أهم المجالات الأولى التي استهوت الباحثين في هذا الميدان ما يتعلق بمعرفة قدرة الكبار على التعلم . فتمن المعروف أن هناك ما يشبه الاعتقاد بين الناس وان كان خاطئاً أن التعليم في الكبر كالنقش على الماء أى لا يؤتى اية ثمرة والمثل يقول « بعد ما شاب راح الكتاب » . ومن هنا كانت النظرة الى أن تعليم الكبار لا جدوى من ورائه . وقد تمزقت هذه النظرة بموامل أخرى ربما كان في مقدمتها قصور الجهود التي بذلت في هذا الميدان عن تحقيق اهدافها . وعلى كل حال فقد جاءت نتائج البحوث التي اجريت على « قدرة الكبار على التعليم » الى نتائج دافئة تثبت قدرة الكبار على التعليم . ولعل من أوائل البحوث التي عملت في هذا الميدان ما قام به ادوارد لى ثورتدايك الأمريكى « ١٨٧٤ - ١٩٤٦ » وكان من أهم النتائج التي توصل اليها ان الكبير قادر على التعلم بل ان نمو القدرة على التعلم يرتفع ليصل الى أعلى نقطة له عند سن العشرين ويظل ثابتاً عند هذه النقطة لعدة سنوات من العمر فيما بعد يأخذ بعدها في الانخفاض البطيء الذى ربما يصل الى واحد في المائة كل عام . وقد توالت البحوث وتعددت لتشمل جوانب مختلفة من تعليم الكبار منها ما يتعلق باهتمامات الكبار وميولهم وخصائصهم النفسية وطرق تعليمهم واساليب التعامل معهم والمواد التعليمية التي تقدم لهم واحتياجاتهم الثقافية والتربوية كما اتسعت الدراسات لتشمل مجالات العمل في تعليم الكبار وادارتها وتنظيمها وتمويلها واعداد معلميها واستخدام الاساليب التعليمية الحديثة . وهكذا أخذ هذا الميدان يتسع ليشمل العديد من الناس من مختلف التخصصات وفي مختلف مواقع العمل ، ومع اتساع الميدان برزت أهمية تحديد الميدان وبدا الكثير يتساءلون ماذا يقصد بتعليم الكبار ؟ وربما عزز هذا التساؤل ما دخل ميدان التربية في السنوات الأخيرة من مصطلحات تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بتعليم الكبار مثل التعليم المستمر أو التعليم الممتد أو التعليم مدى الحياة . ترى هل هذه المفاهيم تعنى شيئاً غير تعليم الكبار أم انها مرادفة له ؟ وإذا كانت الأولى فماذا يقصد بها وإذا كانت الثانية فما الداعى إليها .. والحقيقة ان مشكلة التعريفات وارادة بين المشتغلين بالعلم أى

* للدكتور محمد منير مرسى .

علم وتبرز هذه المشكلة بصفة خاصة لدى المشتغلين بالعمل التربوي في مجالاته المختلفة . . ان نظرة واحدة الى هذه المفاهيم جميعا توضح لنا انها تتفق جميعا في نظرتها الى التربية والتعليم على انها عملية مستمرة مدى الحياة اى انها تمتد من المهد الى اللحد . وهي فكرة في جوهرها ليست جديدة فالتربية الاسلامية نسلم بها من قديم العصور ولكن الجديد هو هذه المصطلحات التى ان دلت على شىء فانها تدل على انها اخرجت القديم فى ثوب جديد . ان تعليم الكبار يقوم فى اساسه على فكرة التربية المستمرة والتعليم الممتد والتعليم مدى الحياة .

ويعرف تعليم الكبار فى الولايات المتحدة الأمريكية بأنه المستوى التعليمى الرابع الذى يتميز من المستوى التعليمى الاول « الابتدائى » والثانى « الثانوى » والثالث « العالى والجامعى » . وهكذا نجد انه ينظر الى تعليم الكبار هناك على أنه تعليم متميز بذاته يفرضه الحاجة المستمرة المتجددة مدى الحياة . والتعريف الرسمى لتعليم الكبار فى بريطانيا « بأنه كل أنواع التعليم غير المهنى لمن تزيد أعمارهم عن ١٨ سنة وتقوم بتقديمه جهات مسؤولة تحت اشراف السلطة التعليمية » . وهذا يعنى شمول تعليم الكبار للمجالات التحقيقية والتربوية المختلفة كما يعنى ايضا التربية المستمرة مدى الحياة وهو معنى تأكد منذ المؤتمر الثانى لتعليم الكبار الذى عقد بكندا سنة ١٩٦٠ .

وينظر الى تعليم الكبار بصفة عامة على انه التعليم الهادف المنظم الذى يقدم للبالغين أو الراشدين أو الكبار غير المقيدون فى مدارس نظامية من أجل تنمية معارفهم ومهاراتهم أو تغيير اتجاهاتهم وبناء شخصياتهم . وهذه النظرة تجعل من ميدان تعليم الكبار ميدانا واسعا عريضا يشمل قطاعات مختلفة من البشر فى مختلف مجالات العمل والانتاج كما انها ايضا تجعل من ميدان تعليم الكبار ميدانا متجددا يقوم فى اساسه على فكرة التربية لعالم متغير ومن ثم لا يمكن ان ينظر اليه على انه تعليم منته بسن معينة او برامج معينة او سنوات دراسية معينة وهي نظرة لا يختلف عليها فى الواقع احد المشتغلين بتعليم الكبار فى الفترة الراهنة .

واذا كان تعليم الكبار كما عرضنا تتسع مفاهيمه وتعدد مجالاته وبرامجه وأنشطته فانه غالبا ما ينصب بصورة رئيسية فى الدول النامية على محور الامية باعتبارها مشكلة رئيسية تواجه هذه الدول ومن ثم ينبغى التظلم عليها . ومحور الامية بالطبع هو احد مجالات العمل فى تعليم الكبار فهذا المفهوم الاخير اعم واشمل من المفهوم الاول وصلة بعضها ببعض هي صلة الفهم بالخاص . ومع هذا فقد يطلق تعليم الكبار على محور الامية حتى فى المحافل الدولية .

تطور تعليم الكبار :

شهد ميدان تعليم الكبار فى السنوات الاخيرة عدة تطورات هامة ادت بصورة مباشرة الى تعميق جوانبه واتساعها وشمولها . ومازالت الجهود تتوالى من اجل توسيع نظرتنا الى هذا الميدان وتحسين استخدامنا له وتطوير اساليب عملنا فيه . ومن الاتجاهات الواضحة المتميزة التى بدأت تفرض نفسها بالحاح على المشتغلين بالعمل التربوى الاعتراف بالاهمية الحيوية لتعليم الكبار وانه لا يمكن ان ينظر اليه على انه اقل حيوية من تعليم الصغار . بل ان اهمية تعليم الكبار كميدان تربوى لا تقتصر على دول مميّنة من مستوى اقتصادى واجتماعى معين وانما تنسحب اهميته على دول العالم المعاصر على اختلاف شاكلتها المتقدمة منها والتامية على السواء .

وكان ظهور منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) عاملا هاما على الانتقال بتعليم الكبار من المستوى المحلى الى المستوى العالمى واخذت منذ انشائها تبدي اهتماما متزايدا بهذا الميدان لا سيما ما يتعلق بمحو الامية . وكان لهذه المنظمة الفضل الكبير فى انها هزت الضمير العالمى والانسانى عندما كشفت نتائج الدراسات التى قامت بها ان ما يزيد عن نصف سكان العالم الكبار اميون . وقد قامت بعقد اول مؤتمر دولى لتعليم الكبار فى الدانمرك سنة ١٩٤٩ عندما كان العالم يتردد انغمسه بعد انتصار الديمقراطية فى الحرب العالمية الثانية . وقد شكل هذا المؤتمر بداية مرحلة هامة لتحديد اهداف تعليم الكبار ومجالاته كما حث على اهمية التعاون الدولى فى هذا الميدان .

وفى عام ١٩٦٠ عقد المؤتمر الدولى الثانى لتعليم الكبار بمدينة مونتريال بكندا اى بعد حوالى عشرينات من المؤتمر الاول شهد خلالها العالم تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة لاعادة بناء ما دمرته الحرب ووضع دعائم التنمية القومية الشاملة كما شهد العالم العربى بداية اليقظة القومية والتحرر من سيطرة الاستعمار وقد ارسى مؤتمر مونتريال دعائم التوسع المطرد فى خدمات تعليم الكبار فى الستينات واسهم اسهاما كبيرا فى انشاء مؤسسات تعليم الكبار واعداد القوى البشرية اللازمة والمجالس والهيئات التنسيقية فى كثير من الدول . وقد ساعد كذلك على بلورة كثير من الاتجاهات الهامة فى تعليم الكبار التى اشرنا اليها فى اول كلامنا . وكان من بين الاسهامات الكبرى له ايضا كسب التأييد للتعليم المستمر مدى الحياة واعتبار التعليم نشاطا مستمرا يترتب عليه آثار بعيدة المدى تتطلب اعادة النظر فى وظيفة التعليم المدرسى والتعليم الجامعى باسكاهما التقليدية . وقد مهد هذا المؤتمر ايضا السبيل لنشوء مفاهيم ومناهج وطرق جديدة ومبتكرة للعمل فى محو الامية ادت الى مفهوم محو

الأمية الوظيفي الذي برز بصورة واضحة في المؤتمر العالمي لمحو الأمية الذي عقد في طهران سنة ١٩٦٥ كما أدى أيضا الى التركيز على التعلم الذاتي وتطوير تعليم الكبار كميدان اكاديمي للدراسة وانتشار المراكز الثقافية والتربوية والاجتماعية الهادفة والمراكز التي يقيم فيها الدارسون بما في ذلك مراكز تدريب الفلاحين وسكان الريف وتزايد مشاركة الحكومات في برامج تعليم الكبار وتمويلها وادارتها وتزايد التعاون الدولي بين الأمم من خلال المنظمات الدولية أو الاقليمية أو الاتفاقات الثنائية والمتعددة الاطراف .

ومع أن هذا المؤتمر قد أكد على أن تعليم الكبار يشكل كلاً متكاملًا فإنه اعتبر معو الأمية أهم الجوانب التي تشكل هذا الكل وأكثرها خطورة .

ومن خلال جهود اليونسكو في هذه المؤتمرات العالمية وما قامت به من تجارب وما تقدمه للدول من مساعدات مادية وبشرية وما تصدره من مطبوعات برز الاهتمام العالمي بتعليم الكبار لا سيما معو الأمية الذي خصصت له حملة عالمية عرفت بالبرنامج التجريبي العالمي لمحو الأمية الذي شمل من البلاد العربية الجزائر والسودان .

ومن بين التطورات الهامة أيضا في ميدان تعليم الكبار انتقاله من الجهود الفردية والتطوعية والشعبية المبعثرة الى الجهود المنظمة من جانب الحكومات وهي نقطة تحول هامة في ميدان معو الأمية بالذات لانه جعل البيئات والحكومات تحس بمسئوليتها نحوه وترصد له الأموال وتسن القوانين والتشريعات وتضع له الخطط والبرامج وتعد له الامكانيات البشرية والمادية .

وهناك أيضا تطور هام بالنسبة لمشكلة الأمية فقد كانت النظرة التقليدية أنها وصمة اجتماعية وعار قومي وكان التحول الذي حدث هو اعتبارها عقبة كئودا في سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي . وقد جاء هذا التحول نتيجة لنمو المفاهيم الديمقراطية واعتبار التعليم حقًا من حقوق الانسان الاساسية فقد أصبح التعليم ضرورة من ضرورات الحياة وأساسا هاما من الأسس الثقافية والحضارية في المجتمعات الحديثة . كما كان ذلك أيضا نتيجة الاهتمام بدراسة العلاقة بين التعليم والاقتصاد ودور التعليم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وهناك تحول آخر هام في ميدان تعليم الكبار لا سيما في ارتباطه بمعو الأمية على المستوى العالمي والعربي على السواء فقد ارتبط تعليم الكبار منذ منتصف القرن العشرين بفكرة التربية الاساسية وانشء مركز يحمل هذا الاسم في سرس الليان احدي قرى محافظة المنوفية بمصر عام ١٩٥٢ تحت

إشراف اليونسكو وبعد أقل من عقد من الزمان تطورت فكرة التربية الأساسية إلى تنمية المجتمع وظل محور الأمية جزءاً رئيسياً فيها ثم تحولت التنمية الاجتماعية إلى محور الأمية الوظيفي منذ عام ١٩٦٩ وربما يكون الإوان قد آن لتطور آخر من نوع جديد وهنا يجب أن نقف وقفة قصيرة لتناول مفهوم محور الأمية بجانبه العام والوظيفي . ويقصد بمحو الأمية في معناه العام محور أمية الكبار بحيث يصبحون قادرين على ممارسة مهارات الاتصال وعلى درجة من الثقافة العامة تمكنهم من المشاركة الواعية في مجتمعهم . أما محور الأمية الوظيفي فلعل كلمة « الوظيفة » هي أكثر كلماته خداعاً لما لها من تأثير في النفس فمن منا يكره الوظيفة أو ينكرها ولذلك كان لهذا المصطلح فعل السحر في النفوس عندما ظهر لأول مرة في الأوساط الدولية .

فمحور الأمية الوظيفي كما أشرنا مهد له المؤتمر الدولي الثاني لتعليم الكبار الذي عقد في كندا سنة ١٩٦٠ كما برز خلال المؤتمر العالمي لمحو الأمية لوزير التربية والتعليم الذي عقد في طهران سنة ١٩٦٥ نيدلاً على منهج في محور الأمية مرتبط بالتدريب الاقتصادي والمهني . فهو محور أمية موجه نحو العمل WORK ORIENTED ومع أن هذا المؤتمر الأخير هو الذي أقر مفهوم محور الأمية الوظيفي فإن الجانب الوظيفي في التعليم لم يكن من اختراع مؤتمر طهران . فقد نادى المربون عبر العصور المختلفة وساندهم في ذلك أصحاب النظريات التربوية بضرورة ربط التعليم بالحياة بحيث يصبح جزءاً عضويًا منها ؛ ويكون التعليم وظيفياً بقدر قدرته على توظيف نفسه في خدمة مجتمعه وحل مشكلاته والتكيف المستمر لمتطلباته المتجددة المتغيرة . وهذه هي نفس الفكرة التي يقوم عليها محور الأمية الوظيفي . إذ يقصد به توظيف محور الأمية في خدمة التنمية وربط محتوى محور الأمية بمناشط العمل . ويلاحظ على محور الأمية الوظيفي بهذا المعنى الذي يمثل الجانب المتطرف أنه موجه إلى قطاعات معينة من الأميين في مواقع العمل والإنتاج وأنه انتقائي ويرتبط بالأولويات التي تتطلبها خطة التنمية وأنه يجعل من تعلم مهارات الاتصال وسيلة لاقتان مهارات العمل والارتفاع بمستواه وأنه يقلل على المتعلم بإضافة عبء جديد في التعليم هو ما يتعلق بتعلم المضمون والمحتوى يضاف إلى ذلك أنه مكلف من الناحية المادية ويتطلب زيادة كبيرة في الوقت والجهد ودونه صعوبات عملية كثيرة . وأخيراً فإنه ينظر إلى المتعلم الكبير على أنه مجرد « ترس » في عجلة الإنتاج دون اهتمام كبير بحاجاته الثقافية والإنسانية والاجتماعية التي كانت تتوفر له في ظل المفهوم الذي يسمى بالتقليدي في محور الأمية . ولذلك نجد أن فكرة التعليم الوظيفي في البلاد العربية سرعان ما هبط التحمس لها بهذا المعنى وشهدت مؤتمرات تعليم الكبار ومحور الأمية وما زالت تشهد احتدام الخلاف حول محور الأمية الوظيفي بهذا المعنى . وقد ترتب على ذلك تهقير محور الأمية الوظيفي بمعناه المتطرف الموجه نحو العمل فقط ليفسح صدره للمجالات الأخرى التي تتعلق بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية بإبعادها المختلفة .